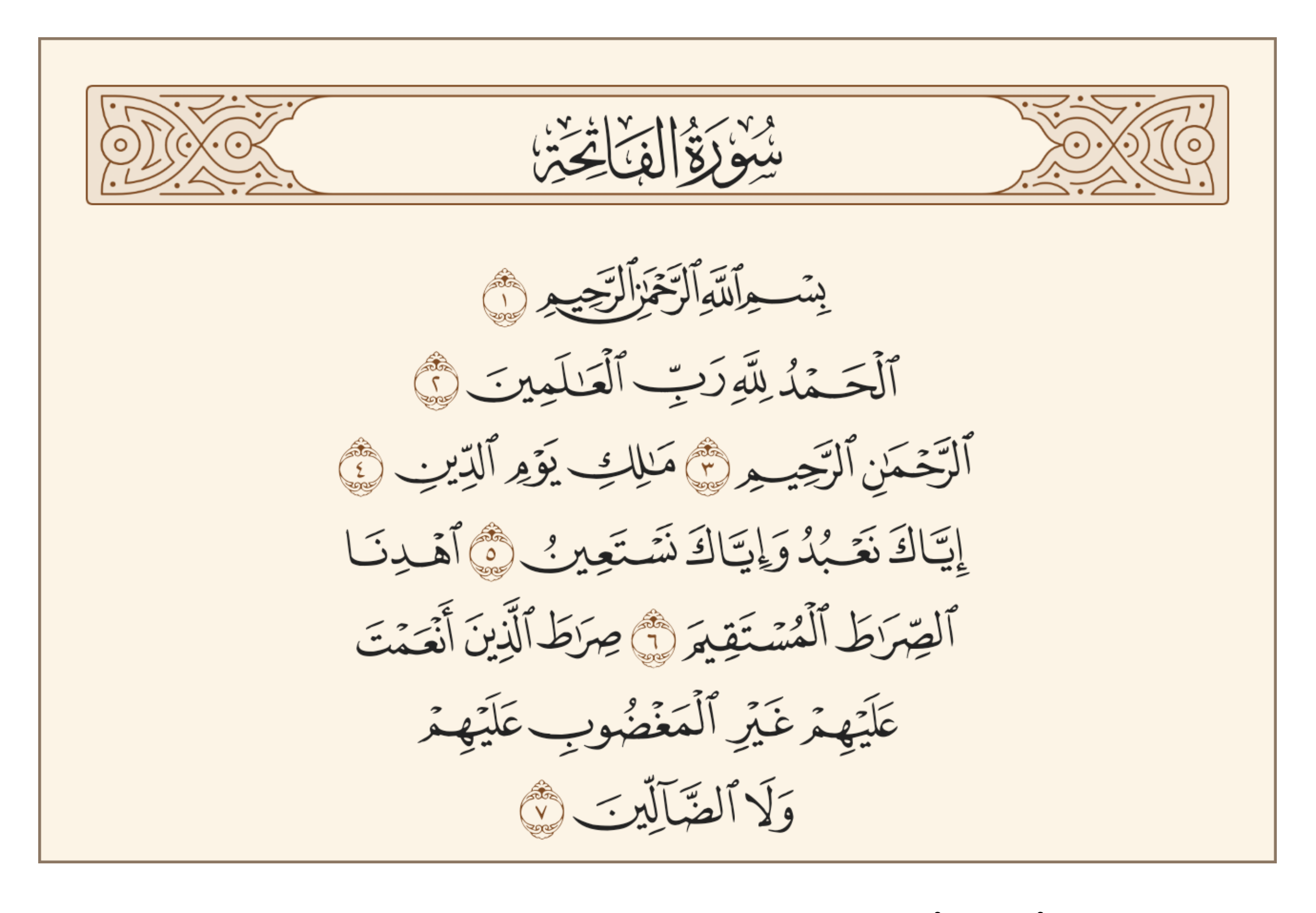
قبس من نور سورة الفاتحة

كتبه غريب الديار بتاريخ الأحد ٨ شعبان ١٤٤٢



يحتار المرء من أين يبدأ الحديث عن هذه السورة العجيبة , سورة الفاتحة , فهي لا تفتح كتاب الله وحسب, وإنما تفتح القلوب أيضا, لترتقي على درن الدنيا, وتتعلق بربها العلي الكبير, حيث الرحمة الواسعة, والفوز العظيم برفقة صفوة الله من خلقه, الذين أنعم الله عليه من النبيين والشهداء والصالحين.

إن الفاتحة هي أشمل وأدق مقدمة يمكن وجودها, فهي حوت موضوع الكتاب كله, كما حوت تعامل الناس معه, وذلك مع بشارة ونذارة, وترغيب وترهيب, كل ذلك في كلمات قليلة من حيث العدد, بليغة من حيث المعنى, وغزيرة من حيث العلم, فهل يمكن تصور مقدمة لأي كتاب خير من هذه المقدمة؟!

إن الفاتحة أيضا مناجاة لله سبحانه، وحنان منه سبحانه بعبده المؤمن، فهي دعاء يبدأ بالثناء والشكر لله رب العالمين ، ثم يتوسطه تعظيم الخالق الملك والتودد إليه ثم ينتهي بدعاء هو بحد ذاته شكر الله سبحانه ...

فأي دعاء كمثل الفاتحة ؟!!

في هذه السطور سوف أحاول أن أقف متدبرا لسورة الفاتحة الوقفات التالية:

- قراءة سورة الفاتحة طاعة أول أمر أمرك به الله
- إياك أن تكذب وأنت تقرأ سورة الفاتحة
- من أخلاق سورة الفاتحة
- تقسيم سورة الفاتحة للناس

قراءة سورة الفاتحة طاعة أول أمر أمرك به الله

عندما تبدأ بقراءة سورة الفاتحة فإن تقرأ أول آية وهي :

﴿ بِسمِ اللَّهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ ﴾ [الفاتحة: ١]

ولو تأملت هذه الآية، لوجدت أن هناك بعض الكلام محذوف، فأنت حين تقول بسم الله الرحمن الرحيم، فإن السامع لا يزال ينتظر بقية الكلام حتى يتم المعنى، وهذا كثير في لسان العرب يحذفون ما هو معلوم من السياق.

لذلك فتتمة الكلام هي "أقرأ" أي أقرأ باسم الله الرحمن الرحيم، فتكون شبه الجملة خبر الجملة الفعلية أقرأ , وقد يقدر متقدما فنقول بسم الله الرحمن الرحيم أقرأ، وهو الأصوب.

بالعودة إلى القرآن، نجد أن أول أمر أمرك به الله هو :

﴿ اقرَأ بِاسمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الإِنسانَ مِن عَلَقٍ ۝ اقرَأ وَرَبُّكَ الأَكرَمُ ۝ الَّذي عَلَّمَ بِالقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الإِنسانَ ما لَم يَعلَم ﴾[العلق: ١-٥]

لذلك عندما تقرأ الآية الأولى من سورة الفاتحة، فأنت عمليا تطيع أول أمر صدر لك من الله في كتابه، وهذا أمر في غاية الأهمية.

لأنه يعني مسؤوليتك عن هذا الكتاب، وأنه أنزل إليك أنت تحديدا، كما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ثم أنت مسؤول عنه، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر يغفل عنه كثير من الناس.

كون الكتاب أنزل إليك أنت تحديدا، هي حقيقة كررها القرآن في عدة آيات منها قوله سبحانه:

﴿ قولوا آمَنّا بِاللَّهِ وَما أُنزِلَ إِلَينا وَما أُنزِلَ إِلى إِبراهيمَ وَإِسماعيلَ وَإِسحاقَ وَيَعقوبَ وَالأَسباطِ وَما أوتِيَ موسى وَعيسى وَما أوتِيَ النَّبِيّونَ مِن رَبِّهِم لا نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِنهُم وَنَحنُ لَهُ مُسلِمونَ ﴾[البقرة: ١٣٦]

وفي قوله

﴿ وَإِنَّ مِن أَهلِ الكِتابِ لَمَن يُؤمِنُ بِاللَّهِ وَما أُنزِلَ إِلَيكُم وَما أُنزِلَ إِلَيهِم ... ﴾[آل عمران: ١٩٩]

وقوله

﴿ يا أَيُّهَا النّاسُ قَد جاءَكُم بُرهانٌ مِن رَبِّكُم وَأَنزَلنا إِلَيكُم نورًا مُبينًا ﴾[النساء: ١٧٤]

والآيات في الباب كثيرة جدا.

إذاً القرآن ليس خاصا برسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما أنزل إليك تحديدا، وقد خدعوك حين قالوا لك أن تفسير قوله سبحانه :

﴿ اقرَأ بِاسمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ۝خَلَقَ الإِنسانَ مِن عَلَقٍ۝اقرَأ وَرَبُّكَ الأَكرَمُ ﴾[العلق: ١-٣]

أي يا محمد.

بل أنت المعني بالأمر، كما كان هو معني بالأمر، وليس الأمر خاص به صلى الله عليه وسلم.

أي أنه كما بلغ جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ربه "إقرأ" بلغك أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ربك "إقرأ".

إن كونك مسؤولا عن هذا الكتاب, يجعلك ملزما بفهمه أولا, لكي تعرف واجبك اتجاهه, وما يريده منك ربك , وهذا يعني تعلم لسان العرب, فهو الآلة التي جعل اللّٰه كتابه يفهم بها ولا غنى عنها فبادر بتعلمها.

أيضا أنت مسؤول عن تطبيق أوامره, واجتناب نواهيه, وبلاغه للناس, تماما كما فعل رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم وصحابته رضوان اللّٰه عليهم.

بالعودة إلى الآية الأولى من سورة الفاتحة

﴿ بِسمِ اللّٰهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ ﴾ [الفاتحة: ١]

نلاحظ أمرا في غاية الأهمية ألا وهو أنك أنت المتكلم , ولست المخاطب , وهذه آية عجيبة , لا توجد في كتاب غير كتاب اللّٰه.

ولكي تدرك أكثر, ففي العادة الكاتب هو من يخاطب القارئ, فأنا الآن أخاطبك أنت, وأنت تشعر بأنك مخاطب, وأن ما تقرأ هو كلامي أنا الكاتب, أليس كذلك ؟

تعال إلى الآية الأولى من سورة الفاتحة واقرأها, وسوف تجد أنك تقرأ كما لو كنت أنت المتكلم, فأنت تقول بسم اللّٰه الرحمن الرحيم أقرأ, ولا تشعر بأنك المخاطب بهذه الآية, كما كنت مخاطبا في آية العلق.

هذه المسألة أي التعبير عن النفس ونحن نقرأ القرآن لا تؤكد أنه أنزل إلينا وحسب, وإنما أنه أيضا وسيلة نعبر بها عن أنفسنا, ولذلك علينا أن نحرص كل الحرص أن نكون صادقين حين نعبر عن أنفسنا ونحن نقرأ القرآن, وإليك بيان ذلك في القبس التالي من نور هذه السورة العجيبة

إياك أن تكذب وأنت تقرأ سورة الفاتحة

خلال قراءتك لبقية سورة الفاتحة ستظل أنت المتحدث, وسوف تخبر عن نفسك أربع مرات وذلك حين تقرأ:

﴿ الحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمينَ ﴾[الفاتحة: ٢]

وحين تقرأ:

﴿ إِيّاكَ نَعبُدُ وَإِيّاكَ نَستَعينُ ۝ اهدِنَا الصِّراطَ المُستَقيمَ ﴾[الفاتحة: ٥-٦]

فإياك ثم إياك أنت تكون كاذبا وأنت تخبر عن نفسك بقراءة هذه الآيات كما هي حال كثير من الناس اليوم ولا حول ولا قوة إلا بالله, وإليك بيان كيف تكون صادقا وأنت تقرأ هذه الآيات

حين تقرأ :

﴿ الحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمينَ ﴾[الفاتحة: ٢]

فأنت تعبر عن شعورك بالرضا والامتنان لكون اللّٰه رب العالمين

أي أنك تعبر عن رضاك بالله ربا للعالمين, وأنت ضمنهم, فالعالمين هم الثقلين الإنس والجن بدليل قوله سبحانه:

﴿ تَبارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرقانَ عَلى عَبدِهِ لِيَكونَ لِلعالَمينَ نَذيرًا ﴾[الفرقان: ١]

هذا يعني أنه وحده اللّٰه ربك, أي وحده اللّٰه من تطيع كما سبق وفصلنا في معنى كلمة الرب في القرآن, ومن ثم فإنك حين تقرأ

﴿ الحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمينَ ﴾[الفاتحة: ٢]

وأنت عندك جهات أخرى غير اللّٰه تتلقى منها الأوامر وتطيعها, فأنت كاذب, ولم ترض بالله ربا وحده , حيث أشركت معه أربابا آخرين .

فانتبه وبادر بالتخلص من الأرباب الآخرين, فلا تزال عندك فرصة, وإلا فاعلم أنه في كل مرة تقرأ سورة الفاتحة - سواء في الصلاة أو خارجها - تكذب, والكذب لا يحل محل الصدق.

حين تقرأ:

﴿ إِيّاكَ نَعبُدُ ... ﴾[الفاتحة: ٥]

فأنت تعلن إعلان في غاية العظمة وهو أنك لا تعبد إلا اللّٰه

هذا يعني أنك لا تخضع, ولا تتذلل إلا لله, ولا تطيع غير اللّٰه

هذا يعني التمرد على كل سلطة غير سلطة اللّٰه عز وجل

أي العداء لكل النظم البشرية التي تحاول إخضاع البشر لها

فهل أنت مدرك لخطورة هذه الإعلان ؟!

إنه يجعلك ضد العالم اليوم الذي تسود فيه قوانين بشرية سواء كانت ذات طابع ديني كالمذاهب, أو لا ديني كالدساتير الوضعية.

ما يتوجب عليك فعله لكي تكون صادقاً في إعلانك هذا, ناقشته في مقال حكم العيش تحت سلطان الطاغوت, فراجعه لتعرف ما يتوجب عليك بناء على هذا الإعلان العظيم.

حين تقرأ:

﴿... وَإِيّاكَ نَستَعينُ ﴾[الفاتحة: ٥]

فأنت تستعلي على المخلوقات , فلا تستعين إلا بالله .

هذا يعني الاكتفاء بالله في كل شيء, فكما لا تعبد إلا الله, لا تلجأ إلى له سبحانه, وهذا يعني استشعار معية الله عز وجل في كل حين , فهل أنت كذلك فعلا؟

حين تقرأ:

﴿ اهدِنَا الصِّراطَ المُستَقيمَ ﴾[الفاتحة: ٦]

فأنت تعبر عن رغبتك في الهداية إلى الصراط المستقيم , فهل حقا عندك هذه الرغبة ؟

لتعرف الجواب عليك أن تفتش نفسك, ماذا فعلت حتى أهتدي إلى الصراط المستقيم؟

وما هو الصراط المستقيم؟

وكيف تهتدي إلى الصراط المستقيم؟

وتكون مستعدا لدفع ثمن الهداية , والذي يعتبر باهظا بحسابات أهل الدنيا , وهو في الواقع لا شيء مقارنة بالهداية وما يترتب عليها من رضوان الله عز وجل.

إذا نظرنا إلى الأخلاق في سورة الفاتحة, نجد السورة حثت على جميع الأخلاق الحسنة في قوله سبحانه:

﴿ إِيّاكَ نَعبُدُ ... ﴾[الفاتحة: ٥]

فعبادة اللّٰه مشتملة على التخلق بكل الأخلاق الحسنة , وذلك لأمر اللّٰه عز وجل , وجعلها قرينة الإيمان التي لا تفارقه كما سبق وبينا عندما تحدثنا عن مكانة الأخلاق في الإسلام.

كما أن السورة حثت بشكل خاص على بعض الأخلاق الحسنة مثل

أ- الرحمة

وذلك في قوله:

﴿ الرَّحمنِ الرَّحيمِ ﴾[الفاتحة: ٣]

فاستحضار صفة الرحمة لله عز وجل والثناء على اللّٰه بها, توطيد لخلق الرحمة لدى المؤمن حين يقرأ سورة الفاتحة.

ب- الإخلاص

وذلك في قوله :

﴿ مالِكِ يَومِ الدّينِ ﴾[الفاتحة: ٤]

فذكر يوم الدين حيث لا تملك نفس لنفس شيئا, توطيد لخلق الإخلاص لله عز وجل في كل شيء, لأنه اليوم الذي ينتظر المؤمن فيه جزاءه من اللّٰه وحده .

ومن ثم فإن المؤمن في كل ما يفعل من خير لا ينتظر جزاء ولا شكورا من أحد, ولا يمن ما فعل من المعروف على أحد.

ج- العزة والعفاف

وذلك في قوله :

﴿... وَإِيّاكَ نَستَعينُ ﴾[الفاتحة: ٥]

وهذه لا تحتاج تعليق، فحين يستغني المرء بالله عز وجل القوي العزيز الغني، يصبح أعز الناس فلا أحد يستطيع إذلاله، لأنه إنما يذل المرء حين يحتاج غير اللّٰه عز وجل، وصدق من قال سؤال غير اللّٰه مذلة.

تقسيم سورة الفاتحة للناس

حين تقرأ قوله سبحانه:

﴿ صِراطَ الَّذينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ المَغضوبِ عَلَيهِم وَلَا الضّالّينَ ﴾[الفاتحة: ٧]

ثم تنظر في كتب التفاسير باحثا عن تفسيرها ستجد أن المغضوب عليهم اليهود، والضالين هم النصارى.

أي أنه ما دمت لست يهوديا ولا نصرانيا فأنت من الذين أنعم اللّٰه عليهم، وهذا خطأ كبير، يفقدك الكثير معنى الآية، فلا معنى أن تدعو اللّٰه أن ينجيك من أن تكون يهوديا ولا نصرانيا وأنت لست منهم فعلا.

نعم اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالين، ولكن هل اليهود هم وحدهم المغضوب عليهم ؟

بالطبع لا

وهل النصارى هم وحدهم الضالون ؟

بالطبع لا

إذاً دعونا نعود للآية ونقرأها وننظر في القرآن عن صفات الذين تحدثت عنهم :

الصنف الأول الذين أنعم الله عليهم :

هذا الصنف نجده يتصف بميزة طاعة اللّٰه ورسوله صلى اللّٰه عليه وسلم وذلك في قوله سبحانه:

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذينَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيهِم مِنَ النَّبِيّينَ وَالصِّدّيقينَ وَالشُّهَداءِ وَالصّالِحينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفيقًا ﴾[النساء: ٦٩]

لكي يطيعوا أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم, عليهم أولا أن يعرفوا الأمر, ثانيا يطيعوه .

الصنف الثاني المغضوب عليهم

إذا بحثنا في القرآن عن من غضب الله عليهم, وصفاتهم, نجدهم غالبا من عرفوا الحق ثم أعرضوا عنه, أو ارتدوا عنه, مثل قوله سبحانه:

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعدِ إيمانِهِ إِلّا مَن أُكرِهَ وَقَلبُهُ مُطمَئِنٌّ بِالإيمانِ وَلكِن مَن شَرَحَ بِالكُفرِ صَدرًا فَعَلَيهِم غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُم عَذابٌ عَظيمٌ ﴾[النحل: ١٠٦]

أي أن من عرف أمر الله عز وجل وأعرض عنه فلم يطعه فقد باء بغضب من الله والعياذ بالله.

الصنف الثالث الضالون

الضال في اللسان عكس المهتدي، وهو في القرآن الذي لا يعرف أمر الله عز وجل, ولذلك قال ربنا عز وجل:

﴿... وَاذكُروهُ كَما هَداكُم وَإِن كُنتُم مِن قَبلِهِ لَمِنَ الضّالّينَ ﴾[البقرة: ١٩٨]

فلقد كنا قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ضالين, لا نعرف ما يريده ربنا منا.

إذاً الناس في سورة الفاتحة تنقسم إلى ثلاثة أقسام بحسب تعاملها مع أمر الله عز وجل, فالمرء إما يعرف الأمر ويطيعه فهو حينئذ من الذين أنعم الله عليهم.

وإما يعرف الأمر ولكنه يعرض عنه, فهو ساعتها من المغضوب عليهم.

وإما لا يعرف الأمر أصلا, فهو حينئذ من الضالين , ولا احتمال ثالث.

الصنف الثاني المغضوب عليهم غائب عن تصورات الناس بسبب الإرجاء الذي انتشر فيهم, والذي من ركائزه أن المرء مسلم, أي من الذين أنعم الله عليهم, وإن أعرض عن أمر الله عز وجل, ما دام يعترف بأنه أمر الله سبحانه, وهذا عين الباطل كما بينا حين تحدثنا عن منزلة المعصية في الإسلام.

تلك اقتباسات من نور سورة الفاتحة اضعها بين يديك لتبدأ تدبر القرآن لتخرج من الظلمات إلى النور.